الإعجاز البياني
في
سورة العـــاديـــات

إعـداد

دكتور/ علي بن دخيل الله العوفي

الأستاذ المشارك في كلية اللغة العربية

الجامعة الإسلامية- المملكة العربية السعودية

١٤٤٥هـ -٢٠٢٣م

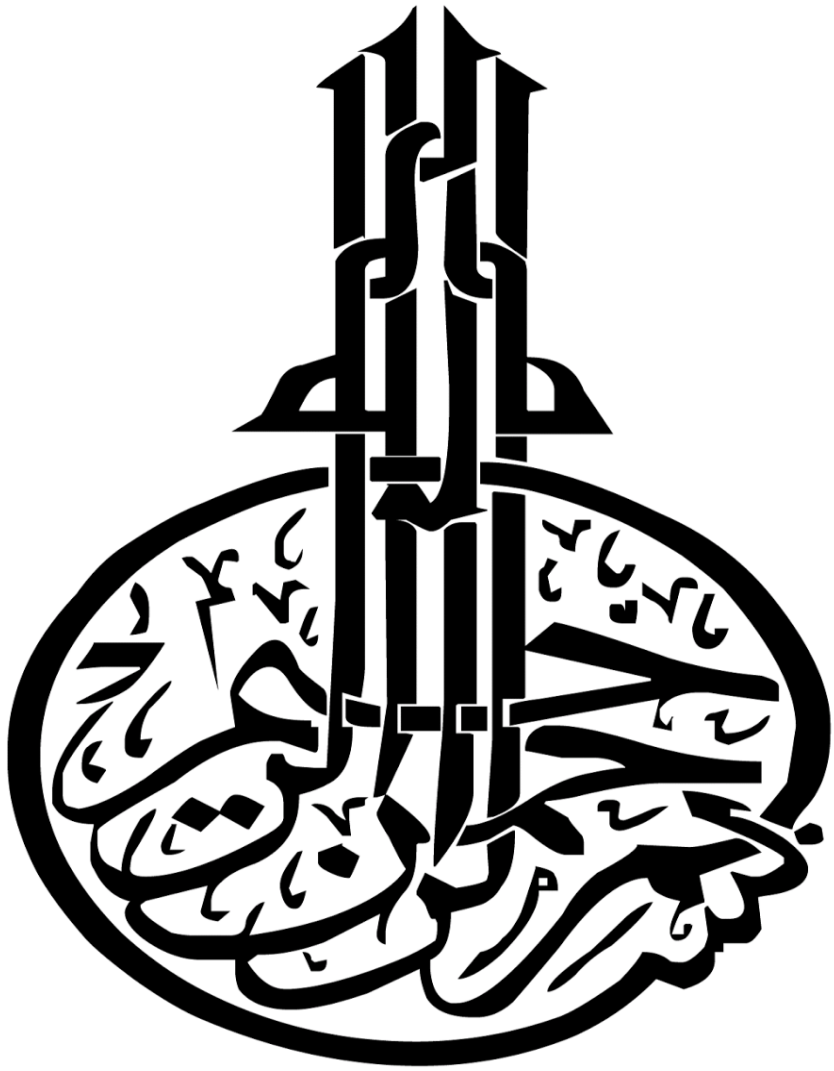

الإعجاز البياني في سورة العاديات

علي بن دخيل الله العويفي
قسم: الادب والنقد – كلية اللغة العربية – الجامعة الإسلامية– المدينة المنورة –المملكة العربية السعودية.
البريد الإلكتروني:
Alioufi@hotmail.com

ملخص البحث:

هذا بحث يتناول الإعجاز البياني في سورة العاديات، وهي من السور المختلف في مكان نزولها، فبعض العلماء يرىٰ أنها مكية والبعض يرىٰ أنها مدنية، ولكل وجهته، وقد عرضت ذلك في البحث، وبينت كيف عرضت حال الإنسان، وقد استهلت بالقسم؛ لأهمية معرفة هذه الحال، ومن ثم جاء القسم في خمس آيات، وجوابه في ثلاث آيات، وآيتان تستنكر علىٰ الإنسان ما يحدث منه، وختمت السورة بإحاطة الحق بكل الأمور الخفية والظاهرة، وهي سورة مترابطة الأحداث، ومن ثم كان ختامها متناسبا مع سياقها، تحدثت فيها عن مقاطعها في المبحث الأول، وعن جواب القسم وعلاقته بالمقسم به في المبحث الثاني، وعن التحذير المفاد من الاستفهام الإنكاري، وعن السمات الفنية في المبحث الرابع، وأولها بلاغة الإيجاز، وثانيها ترابط الأحداث، ثم أدلة صدقها، وحسن التخلص البادي فيها عند سرد أحداثها، ودلالة الإيقاع الصوتي الجلية في مقاطعها، وختمت البحث بأهم النتائج التي منها: تميز كلماتها، ودقة سردها، وترابط عناصرها الدالة علىٰ الإعجاز البياني فيها.

الكلمات المفتاحية: سورة العاديات– الإعجاز البياني.

The Rhetorical Miracle in Surah Al-Adiyat

Ali bin Dkhil Allah Al-Ouweifi
Department of Literature and Rhetoric, Faculty of Arabic Language, Islamic University, Medina, Saudi Arabia.
E-mail: Alioufi@hotmail.com

Abstract:

This research examines the rhetorical miracle in Surah Al-`Aadiyaat, which is one of the surahs whose place of revelation is disputed. Some scholars believe that it is Meccan, while others believe that it is Medinan. Each has its own opinion. I have presented this in the research, and I have shown how it describes the state of man. It began with an oath, because it is important to know this state. Then, the oath came in five verses, its answer in three verses, and two verses that express disapproval of what man does. The surah concluded by stating that the truth encompasses all things, both hidden and manifest. It is a surah with interconnected events, and hence its conclusion was consistent with its context. It discussed its sections in the first section, the answer to the oath and its relationship to the subject of the oath in the second section, the warning implied by the denouncing question, and the artistic features in the fourth section, the first of which is the rhetoric of brevity, the second is the interconnection of events, then the evidence of its truth, and the good riddance that appears in it when narrating its events, and the connotation of the great sound rhythm in its sections. The research concluded with the most important findings, including: the distinction of its words, the accuracy of its narration, and the interconnection of its elements that indicate the rhetorical miracle in it.

Keywords: Surah Al-Adiyat- Rhetorical Miracle.

مقدمة

هذا بحث يتناول الإعجاز البياني في سورة العاديات، وهذه السورة كباقي سور القرآن الكريم لها مقصدها، الذي يربطها بالسورة قبلها، لأن ختام سورة الزلزلة قائم علىٰ التحذير، ومن ثم استهل سورة العاديات بالقسم علىٰ أن الإنسان كنود لنعم ربه، وأن من طبعه البخل، وأنه شاهد علىٰ ذلك، لذا كان من أهم أسباب اختيار هذا الموضوع: تجلية بيان ميل الإنسان نحو الشر، والتأكيد القائم في السورة، وكأنه تفصيل لما ختمت به سورة الزلزلة، وتأكيد علىٰ حتميته، ولذلك جاء جواب القسم مبنيا علىٰ التأكيد(إن الإنسان لربه لكنود)، ثم بيان التحذير القائم علىٰ الاستفهام الإنكاري، وهذا التحذير فيه ردع للإنسان عسىٰ أن يؤوب إلىٰ الحق، ويعود إلىٰ الفطرة التي فطره الله عليها، واتبعت في ذلك المنهج التحليلي لربط عناصر السياق بعضها ببعض، حتىٰ تنبلج منها ما تميزت به السورة من مفردات.

وهذا البحث لم يكرر دراسة سابقة في هذا الموضوع بل تميز بما أبان عنه خلال البحث، ففي سورة العاديات دراسات في غير هذا الموضوع لها مجالها، ومنها:

بحث بعنوان: **سورة العاديات دراسة بيانية ودلالية للدكتور مصعب فاضل صالح**-كلية الإمام الأعظم قسم الدعوة والخطابة، ولاريب أنه بحث شامل لما يتعلق بالتخصص الدقيق للباحث، فقد بين فيه السورة من جهة دعوية.

وبحث آخر عنوانه: **أسلوب القرآن في سورة العاديات دراسة تحليلية ستيلستيكية. للباحث محمد يوردانى**- الجامعة الإسلامية الحكومية ما لانج وهو بحث تكميلي في كلية العلوم والثقافة الإسلامية، وهو قائم علىٰ تحليل مضمون السورة من جهة أساليبها.

وبحثي هذا يختلف عنهما في عرضه ودراسته، وهو قائم علىٰ مدخل بين يدي السورة، يبين نزول السورة، وسببه، ومقصودها الأعظم، وموضوعات السورة، ومقاطعها. وبعده ثلاثة مباحث، **المبحث الأول** تهيئة المتلقي بما سيخبر به، تناولت فيه المقطع الأول من مقاطع السورة الثلاثة، **والثاني** درست فيه جواب القسم وعلاقته بالمقسم به، **والمبحث الثالث** قام علىٰ دراسة المقطع الثالث الذي يفيد التحذير مما يحدث ساعة خروج الناس من قبورهم. ثم جاء **المبحث الرابع** في السمات الفنية في السورة، ثم **ختمت بأهم النتائج**. ثم ذيلت البحث بفهرس لموضوعاته، وثبت لمصادره ومراجعة. وأرجو الله أن ينال القبول إنه نعم المولىٰ ونعم النصير.

والله من وراء القصد

المدخل: بين يدي السورة

أولا: نزول السورة.

قال القرطبي في تفسيره [(١)]؛ وهو مروي عن جماعة من الصحابة وجمع من التابعين، كابن مسعود، وجابر، والحسن، وعكرمة، وعطاء، وإحدىٰ الروايتين عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قالوا: إنها مكية.

والقول الآخر: إحدىٰ الروايتين عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وأنس بن مالك، وقتادة من التابعين. أنها مدنية.

وسبب الاختلاف هو: اختلافهم في المراد بالعاديات؛ هل المراد الخيل، كما يبدوا من ظاهر السورة -وهو قول الجمهور- أم المراد بالعاديات الإبل [(٢)].

واحتج من ذهب إلىٰ أنها مدنية بأن الجهاد في المرحلة المكية لم يُشرع بعد حتىٰ نجد خيلا تغير، ومن قال: إنها مكية؛ قال: ليس بالضرورة أن يكون هناك جهاد.

والصحيح: أن الحكم بمكية السورة أو مدنيتها باعتبار ما يلوح من معانيها اعتبار غير صحيح، وأن الحكم في ذلك مرده النقل.

ثانيًا: سبب نزولها:

قَالَ مُقَاتِلٌ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- سَرِيَّةً إِلَىٰ حَيٍّ مِنْ كِنَانَةَ وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمُ الْمُنْذِرَ بْنَ عَمْرٍو الْأَنْصَارِيَّ، فَتَأَخَّرَ خَبَرُهُمْ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: قُتِلُوا جَمِيعًا، فَأَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ يَعْنِي: تِلْكَ الْخَيْلَ.

---

(١)- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/ ١٥٣.

(٢) - جامع البيان للطبري، ٢٤/ ٥٥٨.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- بعث خيلا فأسهبت شَهْرًا لَمْ يَأْتِهِ مِنْهَا خَبَرٌ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ ضَبَحَتْ بِمَنَاخِرِهَا. (١)

ثالثا: مقصود السورة.

الإعلام بأن أكثر الخلق يوم الزلزلة هالك؛ لإيثار الفاني من العِزِّ والمال علىٰ الباقي عند ذي الجلال المدلول عليه بالقسم وهو (الْعَادِيَاتِ) والمقسم عليه، وما عطف عليه. (٢)

رابعًا: سبب تسميتها.

وسُمِّيت بهذا الاسم لقوله – تعالىٰ – في أولها ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ (٣)

خامسًا: موضوع السورة.

أما السورة بأقسامها الثلاثة -التي سيأتي ذكرها-فموضوعها هو حال الإنسان وما عليه من صفات سيئة جُبل عليها، تتمثل في بخله، وحبه الشديد للخير؛ مقارنة بغيره من الكائنات الأخرىٰ.

وعدد آياتها إحدىٰ عشرة آية؛ وهي ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾

---

(١) – تفسير مقاتل ٤/ ٨٠١، والكشف والبيان للثعلبي ٣٠/ ١٧١، وأسباب النزول للواحدي ص ٤٦٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٤٨٠.

(٢) – مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور للبقاعي ٣/ ٢٣٧– مكتبة الرياض – الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨ هـ

(٣) – النظم الفني في القرآن للشيخ عبد المتعال الصعيدي ص٣٦٠ مكتبة الآداب.

وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ سورة العاديات/ ١-١١.(١)

سادسًا: مقاطع السورة

تبدو لي هذه السورة مكتملة المبنى محققة للغاية المستهدفة في ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: وهو ما يمكن تَسْمِيَتُهُ: مفتتح السورة، ويضم الآيات الخمس الأولىٰ من قوله – تعالىٰ –(وَٱلْعَٰدِيَٰتِ .... إلىٰ قوله – تعالىٰ – : فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا).

---

(١) – معاني المفردات:

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ : قسم بالخيل تَعْدو في الغزو.

ضَبْحًا: صوت أنفاسها إذا عدت.

فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا: الـمُخْرِجات النار بعبك حوافرها من الأحجار.

فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا: المُباغتات للعدو وقت الصباح.

فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا: هيَّجْنَ في الصبح غبارا.

فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا : فتوسطن فيه من الأعداء.

إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ : بطبعه إلا من رحم الله.

لَكَنُودٌ: لكفور جحود.

وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ : لأجل حب المال.

لَشَدِيدٌ : لقوي مُجِد في تحصيله مُتهالك عليه.

بُعْثِرَ: أثير وأُخرج ونُثِر.

وَحُصِّلَ: جُمِع وأُظْهِر أو مُيِّز.

ينظر: كلمات القرآن للشيخ/ حسنين مخلوف.

والمقطع الثاني: هو ما يمكن تَسْمِيَتُهُ صلب السورة ويشمل آيات ثلاث، من قوله – تعالىٰ – (إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ... إلىٰ قوله – تعالىٰ –: لَشَدِيدٌ)

والمقطع الثالث: وهو ما يمكن تَسْمِيَتُهُ ختام السورة، ويشمل آيات ثلاث: من قوله – تعالىٰ –: (أَفَلَا يَعْلَمُ .... إلىٰ قوله – تعالىٰ –: لَّخَبِيرٌ).

ويمثل كل مقطع من هذه المقاطع الثلاثة وحدة مستقلة قائمة بذاتها؛ ولها قيمتها المفيدة في إطار نفسها، ولها قيمتها المفيدة – أيضا – في إطار سياقها العام وتلاحمها مع غيرها.

وبهذا الانتظام البديع، والتكامل العجيب؛ بين القيمتين نصل إلىٰ الغاية المرادة من السورة بعامة، وإن جاز هنا أن نتصور عظمة هذا النظم وقوة التلاحم فيه؛ استحضرنا قدرة المبدع المنشئ في خلق الإنسان من خلال قوله – تعالىٰ –:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة المؤمنون/ ١٢-١٤

وإنك لتهتز لهذا الإبداع والإحكام؛ كما تهتز لذلك النظم إذا أسعفتك أدواتك، ورزقك الله الفهم الدقيق، ومن هنا التبس علىٰ الناس وجه الإعجاز؛ وذهبوا فيه مذاهب شتىٰ لم ينتهوا فيها لشيء واحد؛ يجزمون به تماما مثل من يعدد تلك المراحل التي يمر بها الإنسان في خلقة ويحكيها في الجملة (طِينٍ – نُطْفَةً – عَلَقَةً – مُضْغَةً – عِظَـٰمًا – لَحْمًا – ٱلْإِنسَـٰنَ) ومثل من يتتبع تلك التدرجات، ويرصد

لظواهرها، وتحولاتها، وكيف يسلم بعضها إلىٰ بعض إلىٰ أن يكتمل بناء هذا المخلوق العجيب.

وبناء عليه أقول: يسلم لي القول: أن كل وحدة من وحدات النظم الكريم في إفصاحها، ودلالتها، وعلاقتها بسابقتها ولاحقتها؛ في إطار السياق العام الهادف إلىٰ غاية ما؛ بمثابة تلك المراحل المتلاحقة التي تهدف إلىٰ إيجاد ذلك المخلوق.

وإني لموقن تمام اليقين: أن الإبداع في النظم لا يقل بحال من الأحوال عن الإبداع في الخلق؛ فتبارك الله أحسن المنشئين.

وأخلص من هذا إلى القول: إننا بحاجة إلىٰ تأمل كلام الله -ﷻ- وتدبره وإدامة النظر فيه لاقتناص درره، والغوص في معانيه؛ لمعرفة أسراره ولطائفه الدقيقة.

المبحث الأول: في المقطع الأول

(تهيئة المتلقي بما سيُخبر به)

كما أسلفت فإن عدد آيات هذا المقطع خمس آيات، وهي: ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ۝٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ۝٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ۝٥ ﴾ سورة العاديات/ ١-٥.

وفي هذه الآيات تتوالىٰ الصور الجزئية؛ لتشكل مشهدا مرعبا مخيفا؛ يتنامىٰ فيه الفزع، وتزيغ فيه الأبصار، وتبلغ به القلوب الحناجر؛ مشهد استقر في أذهان القوم آنذاك، ويكشف عن طبيعة النفس الإنسانية؛ ويجلي حقيقتها؛ تلك الحقيقة التي تمردت علىٰ سلطان العقل، وهيمنة الخالق، واستجابت لملذاتها وأهوائها وشهواتها.

ويبدو لي أن هذا المشهد بكل ما يحمله من معانٍ لم يقصد لذاته، وإنما قصد لخلق مواءمة صادقة بين سياقين مختلفي القناعة متحدي المؤدىٰ، فالسياق الأول لا يساور قناعتك فيه أدنىٰ شك؛ بينما السياق الثاني لا يسلمك لقناعة تجزم فيها بأمر. ويبدو للمتأمل البصير أن القناعة الأولىٰ المتمثلة في السياق الأول مقصودة؛ لبث القناعة في السياق الثاني.

فمشهد الإغارة علىٰ الآخرين، وسلبهم حرياتهم وأموالهم؛ يمثل ذروة درجات الاعتداء وتهميش القيم والحقوق، وذروة الأنانية وحب الذات والتملك؛ أيا كان مسلكه مشروعا أو غير مشروع، وهذا المشهد لا يختلف اثنان في طغيانه وظلمه وبشاعته، وقد وُظفت القناعة الراسخة فيه للخبر الذي يليه ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ

لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ سورة العاديات/ ٦-٨

فمجرد وصف المشهد بالصفات المذكورة وما يحمله من دلالة وقناعات قبل تلك الأخبار المؤكدة (إِنَّ – لَكَنُودٌ – وَإِنَّهُ -لَشَهِيدٌ – وَإِنَّهُ -لَشَدِيدٌ) نجد أن دلالات المشهد وقناعاته تنتقل مباشرة وبالقوة نفسها إلىٰ الأخبار بعده، ومن هنا كان ذلك المشهد كالتوطئة لما بعده؛ ولذا سميتُ المقطع الأول (التوطئة لما سيلقىٰ له الخبر).

ولنبدأ الآن بتفصيل ذلك المشهد المتنامي:

ابتدأ المشهد بـ ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ وهي في أصح الروايات [1] الخيل، وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعطاء، والعاديات: جمع عَادِيَة وهي المُسْرِعة، والعاديات اسم الفاعل من العَدْو؛ وهو الجري، علىٰ أن في العَدو معنًىٰ زائدًا علىٰ الجري، إذ العدو فيه التجاوز، نقول: عدا يعدو إذا تجاوزه، بخلاف الجري فلا تجاوز فيه، وربما لذلك لم يستخدم القرآن مع الخيل إلا العدو.

والضَبْحُ: هو الصوت الذي تخرجه الخيل من جوفها [2]، ولهث يتردد من أنفاسها.

---

(١) – هناك روايات مختلفة في المراد بالعاديات، أصحها أنها الخيل، وهذا ما نص عليه جمهور المفسرين، وممن قال به ابن عباس وعكرمة وعطاء وقتادة، وقيل: إنها الإبل، وقيل: إنها الإبل في الحج، وقيل: إنها الرياح، وقيل: إنها كل شيء يعدو ويجري بأمر الله له صوت.ينظر: تفسير عبد الرزاق الحميري ٣/ ٤٥٣.وينظر جامع البيان للطبري ٣٤/ ٥٥٧-٥٦٠.

(٢) – معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٥٣.

وقيل: إن الضَّبْح حمحمة الخيل عند العدو، وقيل: شدة النفس عند العدو [١]، وفيه تشبيه بالضباح، وهو صوت الثعلب [٢]، ولا يكون إلا في حالة العدو الشديد الطويل، وهذا الصوت المتنامي المشحون بالقوة لا يخلو من فزع، وبخاصة إذا زامنه صوت خيل أخرىٰ وترافق معه الصوت الذي تحدثه الخيل عند ركضها الأرض بحوافرها، وتطاير الحجارة من تحتها.

فالمشهد الصوتي يكشف عن صورة مرعبة تنخلع لها القلوب، وكل ذلك تحقق بكلمتين لا ثالثة لهما ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴾ سورة العاديات/ ١

الْمُورِيات: جمع مورية، والإيراء هو استخراج النار بالقدح، وتظهره بسنابكها، وتقول: أورىٰ القادحُ النار، وتسمىٰ النار التي تظهر تحت السنابك (نار الحُباحب) لضعفها، قال النابغة في صفة السيوف:

تَقُدَّ السَّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ ... وَتُوقِدُ بِالصُّفَّاحِ نَارَ الْحُبَاحِبِ [٣]

ومنه قوله – تعالىٰ – ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴾ سورة الواقعة/ ٧١ .و" قَدْحاً" اسم فاعل من المصدر؛ لأن الإيراء من القدح، والقدح: اصطكاك جسم بآخر [٤]، ويجوز أن يكون حالاً، فالمعنىٰ: (قَادِحَات)، أي: ضابحات بحوافرها ما توري النار، ويقال: قدحت الحجر بالحجر، أي: صَكَكْتُه به [٥]، ويتولد عن هذا

---

(١) – النكت في القرآن الكريم، أبو الحسن علي بن فَضَّال المُجَاشِعِي القيرواني، ص ٥٦٩، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٤٨١

(٢) – المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ص٥٠١.

(٣) – ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، درا المعارف، ط الثانية .

(٤) – تفسير ابن كثير ٨/ ٤٤٥.

(٥) – التبيان للعكبري ٢/ ١٣٠٠، والفريد للهمذاني ٦/ ٤٤٨، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٠/ ٤٥٧.

الاصطكاك- وهو ضرب حوافر الخيل بالأرض الصلبة[١] - خروج الشرر؛ وهو ما يسبق اشتعال النار، ويُلحظ في الشرر تلك الانطلاقة السريعة وذلك التتابع المخيف.

وعطفت الجملة الثانية علىٰ الأولىٰ بالفاء التي تفيد التعقيب والترتيب؛ أي: إيراء القدح جاء عقب العدو مباشرة، كما يلحظ هنا أن المشهد مرئي وهو خروج الشرر من تحت أرجل الخيل العادية، وإذا ما ربطنا الصورة السمعية السابقة بهذه الصورة المرئية تنامىٰ الرعب في ذهن المتلقي وذهبت نفسه فيه كل مذهب، فالعدو شديد مستمر؛ امتد لساعات حتىٰ أخرج هذا الشهيق والزفير المتصاعد والحركة السريعة تمازجت فيها عدة أصوات، صوت اصطكاك الحوافر بالأرض وصوت الحجارة المتطايرة بالحجارة، أضف إلىٰ ذلك ما يكشف المشهد المرئي من خروج للشرر في ظلام حالك، وكأن مجموعة الخيل تعدو علىٰ كرة من لهب.

وكما ترىٰ فإن المشهد المشحون ارتسم للمخاطب من أربع كلمات وقعت كل كلمة- سواء في دلالتها الخاصة أو مع أختها- موقعها القمن بها، والأعجب من هذا، أن هذا المشهد يحمل دلائل صدقه المتسقة مع واقع العرب آنذاك، فالمهمة خاصة (إغارة) والإغارة تستلزم السرية، والسرية مطلوبة للمباغتة من جهة وضمان الانتصار من جهة أخرىٰ، وهو الأمر الذي استدعىٰ اختيار أقدر الفرسان وأجود الأفراس، وتحديد الزمان، والمكان، والطريق المناسب، وما كان لهذه المهمة أن تتم- كما دل عليه السياق فيما بعد- كما خطط لها لو تخلف عنصر من عناصر نجاحها.

ويُلحظ على الآيات الثلاث، أن الفاصلة تنتهي بحرف الحاء (ضَبْحًا، قَدْحًا، صُبْحًا) والحاء حرف حلقي ففيه ملاءمة للضبح الذي يخرج من الحلق؛ ومن هنا عبر عنه ابن عباس-رضي الله عنهما- ب (أح أح) فوجود هذا الصوت فيه استصحاب للعدو

(١) - غريب القرآن لابن قتيبة ٥٣٦.

المستمر الذي لم ينقطع حتىٰ توسطت الخيل جموع العَدُوِّ، والإيقاعُ فيه هو من الإيقاع السريع في الآيات الثلاثة.

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾، الإثارة هي: الإهاجة، والنقع كما ذكره المفسرون؛ هو الغبار، وهناك من يفرق بينهما؛ فيجعل النقع مخصوصا بأرض المعركة، بخلاف الغبار فإنه أعم ويكون في المعركة وغير المعركة، والمراد: أن هذه الخيل المسرعة حركت بحوافرها التراب فأخرجت الغبار، ولذا نجد أن الخيل عدت عدوا سريعا مستمرا بلا توقف؛ طلبا لتحصيل المفاجأة للمباغتين، وهذا تنبئ عنه كلمة (ضَبْحًا) ثم الخيل عدلت عن الطريق المألوف إلىٰ طريق آخر لا يتوقع، وبدت الأرض في هذا الطريق صلبة إذا ضربتها الحوافر تخرج منها الشرر؛ كما تنبئ عنه كلمة (قَدْحًا) والقدح يدل علىٰ أن المهمة اختير لها الليل وهذا أنسب للستر.

وواضح أن الخيل عدت الليل كله، وكل ذلك ليتيسر لها المباغتة صباحا، وهو وقت السكون التام، وهو ما دل عليه قوله تعالىٰ ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ سورة العاديات/٣ ، ثم جاءت الآية الثالثة (فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا) المُغِيرَات: جمع مُغيرة من الفعل أغار يغير، وهي كذلك من أوصاف الخيل، والإغارة هي مباغتة العدو المستهدف.

صبحا: أي وقت الصباح، وهو أنسب الأوقات للمباغتة؛ ولذا نجد أن القرآن أشار إلىٰ هذا الوقت، وربطه بالعذاب كثيرا، فقال: ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ ﴾ القمر: ٣٨﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ الحجر: ٦٦﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ هود: ٨١.

وكما قلت في الآية الثانية أقول في الآية الثالثة؛ حيث جاء العطف بالفاء لإفادة التعقيب والترتيب.

والضمير في به يجوز أن يعود إلىٰ المكان، أي مكان الحي، وهذا جائز في اللغة وإن لم يتقدم له ذكر، وعلىٰ هذا الرأي الطبري؛ يقول: وكُني عنه ولم يجر له ذكر لأنه معلوم أن الغبار لا يُثار إلا من موضع، فاستغنىٰ بفهم السامعين بمعناه عن ذكره، ويجوز أن يراد به الصبح، وهذا هو أقرب مذكور، ويجوز أن يراد به العدو: أي أثرن بعدوهن الغبار، وأرجح أن يكون المراد المكان، وهذا وإن لم يتقدم له ذكر إلا أن السياق لا يمنعه، ومناسبة الاختصار المرعية هنا تؤيد ذلك.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ فوسطن أي توسطن جمعا: أي جموع العدد، وقد قرئ بالتخفيف[1] وبالتشديد للتعدية[2]، والباء زائدة للتوكيد كقوله تعالىٰ (وأُتُوا به) وهي مبالغة في وسطن[3].

ويلحظ في الآيتين السابقتين ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾ سورة العاديات/ ٤-٥ أنه- تعالىٰ- عطف الفعل (فَأَثَرْنَ) علىٰ الاسم (فَالْمُغِيرَاتِ) ولم يجعلهما علىٰ نسق واحد مثل (الْعَادِيَاتِ – فَالْمُورِيَاتِ – فَالْمُغِيرَاتِ – فالمُثِيرَات –

---

(١) – قراءة جمهور القراء العشرة.

(٢) _ قرأها علي -رضي الله عنه-، وقتادة، وابن أبي ليلىٰ. وهو بمعنىٰ التخفيف غير أن التشديد فيه معنىٰ التكثير والتكرير. وقيل: معنىٰ التشديد: مَيَّزْنَ به جَمْعًا، أي: جعلنه شطرين، قسمين، شقين. ومعنىٰ التخفيف: صرنَ في وسطه. انظر: مختصر الشواذ لابن خالويه / ١٧٨/ . وإعراب القراءات الشواذ للعكبري ٢/ ٥٢٠. والمحتسب لابن جني ٢/ ٣٧٠. والمحرر الوجيز لابن عطية ١٦/ ٣٥٤.

(٣) – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ٤/ ٧٨٧.

فالـمُوَسطات) لأن الآيات الثلاث الأولىٰ فيها ذكر للخيل وصفاتها، بخلاف (فَأَثَرْنَ - فَوَسَطْنَ) فهي ليست بصفات للخيل، وإنما هي أفعال تقوم بها الخيل في المعركة، ولذا كان الأنسب استعمال الفعل الذي يدل علىٰ الحدوث والتجدد؛ لأن المعنىٰ" واللاتي عدون فأورين، فأغرن، فأثرن، والضمير في (بِهِۦ) يعود علىٰ الوادي، وإن لم يتقدم له ذكر، وهو مكان العدو.

وقيل: يعود علىٰ الصبح، أي: فأثرن به في وقت الصبح.

قال أبو حيان: وهذه أحسن من الأول؛ لأنه مذكور بالصريح، وعلىٰ كلٍ من التفسيرين فالباء من (بِهِۦ) بمعنىٰ: في. (١)

كما نلحظ تقدم قوله ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ علىٰ قوله – تعالىٰ- ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ لأنه -كما يبدو- أن إثارة النقع مقصودة من قبل الفرسان، وبها يضمنون زيادة بث الرعب والخوف في نفوس المغار عليهم، ناهيك عن التعتيم عليهم ومنعهم من أخذ أسلحتهم للمقاومة، وفوق هذا وذاك: إخفاء عدد وعدة وهوية المغيرين، وفي مثل هذه الأجواء يستطيع قليل من الفرسان الإغارة علىٰ قوم كثير، وبهذا يعلم -أيضا- أن المغيرين قبل أن يباشروا القتال يناسبهم أن يهيجوا الغبار في منطقة القتال ومن ثَم ينصرفوا إلىٰ الضرب والطعن.

ويعلم أن عملية الإنجاز لم تتم جزافا وبلا تخطيط، بل حسب فيها كل شيء بدقة بالغة!

(١) – التبيان للعكبري ١٣٠٠/٢، والفريد للهمذاني ٤٤٩/٦، والبحر المحيط لأبي حيان ٥٢٩/١٠، وإعراب القرآن لمحي الدين الدرويش ٣٨٧/١

المبحث الثاني: في المقطع الثاني
(جواب القسم وعلاقته بالمقسم به)

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ العاديات/ ٦-٨

هذا هو جواب القسم المتقدم، والإنسان: هو مطلق إنسان، فهو يشمل المؤمن والكافر، والألف واللام للاستغراق.

وقوله (لَكَنُودٌ): ذكر أكثر المفسرين علىٰ أن (كَنود) بمعنىٰ (جحود)، ونقل الفراء عن الكلبي: أنها لغة لكنده وفي حضرموت [(١)]؛ ولعل المعنىٰ أدق من ذلك؛ إذ الكنود هي: الأرض التي لا تنبت، أي لا تعطي شيئا، حيث قال الأعشىٰ [(٢)]:

أَحْدِثْ لَهَا تُحْدِثْ لِوَصْلِكَ إِنَّها كُنُدٌ لوَصْلِ الزَّائِرِ المُعْتادِ

ولذا قال الحسن البصري: "الكنود البخيل بما أعطي، الذي يمنع رفده، ويجيع عبده، ويأكل وحده، ولا يعطي لنائبة تكون في قومه، ولا يكون كنودا حتىٰ تكون هذه الخصال فيه". [(٣)]

واختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ فبعضهم ذهب إلىٰ أنه راجع للإنسان، أي يشهد علىٰ كنوده، ولا يقدر أن يجحده لظهور أمره؛ وذلك أن الضمير يرجع إلىٰ أقرب المذكورين إذا تساويا من حيث

---

(١) – معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٥.

(٢) – مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنىٰ البصري، ٢/ ٣٠٧، وينظر في ديوان الأعشىٰ، ص ٢٨.

(٣) – البسيط للواحدي ٢٤/ ٢٥٤، ومفاتيح الغيب للرازي ٣٢/ ٢٦١، والبحر المديد لابن عجيبة ٧/ ٣٤٢، وفتح القدير للشوكاني ٧/ ٣٤٢

المعنىٰ، والإنسان هنا هو المحدَّث عنه والمسند إليه (الكنود)- إن الإنسان لكنود لربه- وأيضا- تناسق الضمائر لواحد مع صحة المعنىٰ أولىٰ من جعلهما لمختلفين، ولا سيما إذا توسط الضمير بين ضميرين عائدين علىٰ واحد[١].

ورجح العلامة الشنقيطي-رحمه الله- في دفع إيهام الاضطراب أن الضمير راجع إلىٰ رب الإنسان، مستدلا لما يأتي بعده: وإنه لحب الخير لشديد[٢]، وشهادته تكون بلسان الحال.

والآن حان الوقت لبيان العلاقة بين آيات القسم المتقدمة (وَالْعَادِيَاتِ – فَالْمُورِيَاتِ – فَالْمُغِيرَاتِ – فَأَثَرْنَ بِهِ – فَوَسَطْنَ بِهِ) والمقسم عليه ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ العاديات: ٦، أقول: وفي هذه الآيات بيان صفات الخيل التي لا تعصي صاحبها، وتفعل ما في وسعها في طاعته حتىٰ رأينا منها تحمل هذا العدو الشديد الذي آب بها إلىٰ الضبح، والصبر في العدول عن الطريق السهل إلىٰ الصعب الصلب؛ الذي ربما آذىٰ حوافرها حتىٰ كان منها ذلك القدح، لتقتحم في نهاية المطاف الجموع غير عابئة بما يمكن أن يلحق بها من الإصابة أو الهلاك، وكل ذلك إرضاء لربها، أي صاحبها الذي يطعمها ويسقيها.

أما الإنسان فعلىٰ العكس من ذلك، فإنه لخالقه ورازقه كنود، لا تجد بينه وبين ربه أي صلة أو توجه إليه.

﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ العاديات/ ٧ ، أي شاهد يشهد بهذا السلوك، وقيل إن الضمير في (لشهيد) يعود علىٰ الله-سبحانه وتعالى-.

---

(١) - البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي ١٠/ ٥٢٩.

(٢) - دفع الإيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ص ٣٧٧.

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ العاديات: ٨ مطلق الخير، وأخطأ من فسر الخير بالمال فقط، وهذه الآية قسيم لقوله تعالىٰ المتقدم ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ العاديات/ ٨ فهو بخيل لا تدفعه فطرة لربه، وهو لحب الخير لشديد يدفعه غريزة مركوزة في نفسه.

والله أعلم.

المبحث الثالث: في المقطع الثالث

(التحذير المفاد من الإنكار)

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ سورة العاديات ٩-١١

وفرع علىٰ الإخبار بكنود الإنسان وشحه استفهامًا إنكاريًا عن عدم علم الإنسان بوقت بعثرة ما في القبور، وتحصيل ما في الصدور فإنه أمر عجيب كيف يغفل عنه الإنسان!

وهمزة الاستفهام قدمت علىٰ فاء التفريع؛ لأن الاستفهام صدر الكلام أفلا يعلم: أي ذلك الإنسان، والاستفهام هنا إنكاري(١).

وقوله (إِذَا بُعْثِرَ) أي: أثير وأخرج، "وانتصب إذا علىٰ الظرفية لمفعول يعلم المحذوف اقتصارا، ليذهب السامع في تقديره كل مذهب ممكن قصدا للتهويل"(٢).

وقوله: (مَا فِي الْقُبُورِ): كناية عن إخراج الموتىٰ وبعثهم، والمراد هو إخراج الموتىٰ، وحُصِّل: بمعنىٰ جمع، وأحصي، وتحصيل ما يخفون في ضمائرهم من الأعمال والعقائد.

وقوله "لَخَبِيرٌ" أي: مطلع علىٰ حقائق الأشياء والعَالِم بالكليات والجزيئات.

وهذا المقطع يمثل نهاية المقاطع الثلاثة، وكلها تصب فيه وتنتهي إليه، فالقسم بالخيل- ولله أن يقسم بمن شاء من خلقه- في عدوها الشديد، وجلدها عليه نهارا

---

(١) - التحرير والتنوير، ٣٠/ ٥٠٦، والتفسير البلاغي للاستفهام د/ المطعني ٤/ ٣٨٢

(٢) - السابق ٣٠/ ٥٠٦.

وليلا، وإيراءها للشرر من تحت حوافرها في عتمة الليل وما أعقب مكابدة الليل حتىٰ الصباح لمباغتة المستهدفين بعد إثارة الغبار وتهييجه في ساحتهم، كل ذلك ليدل علىٰ أن هذا الحيوان المقسم به وبصفاته أشد من الإنسان ولاء لربه الذي يطعمه ويسقيه، كما أنه أصدق منه حبا وحفظا للود وللجميل؛ بينما الإنسان لربه كنود (لا يعطي شيئا) بل ولا يكون منه، والأعجب ما أعطاه كل واحد لصاحبه؛ فراعي الخيل لم يعطه إلا حفنة قليلة من عشب ومن ماء، والله-ﷻ- أكرم الإنسان وامتنَّ عليه بأمور كثيرة: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [سورة النحل:١٨]، نعمة الصحة والعافية ونعمة التفضيل علىٰ الخلق، ونعمة الهداية، والعقل... وكثير من ذلك، ومع ذلك تجد أنه لربه لكنود، ولحب التملك، والإعراض بنفسه شديد، كأن ما يصيبه من كرم الله عليه ما هو إلا حق مستحق له!

فما سر التمايز بين المخلوقَين، فلم هذا يجود بنفسه مع أقل القليل الذي يأخذه من ربه، وذاك أخذ كل شيء من ربه، وغُمر بالنعم، ولا يكاد يجود بشيء؟!

بلا شك أن السر في ذلك سيظهر بعدما يُبعثر ما في القبور، وإعادة الناس إلىٰ الحياة الأولىٰ، ويُحصل ما وكز في صدورهم؛ مما كانوا يظنون مغيبات غابت عنه، في ذلك اليوم يعلم الله المستترات وكنه هذه النفس العجيبة[١].

(١) - تفسير الماتريدي- تأويلات أهل النسة- ١٠/ ٦٠٠.

المبحث الرابع: السمات الفنية لسورة العاديات

اتسمت سورة العاديات بعدة سمات بلاغية يمكن إيجازها فيما يأتي:

الإيجاز: ونعني به جمع المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة وهي سمة بارزة في السورة كلها ولا أدل علىٰ ذلك من:

- الكلمات الدقيقة الموحية:

فالسورة من أولها إلىٰ آخرها مشحونة بالكلمات الدقيقة ذات الإيجاز العالي، فالعاديات: عبر عنها بكلمة واحدة تكشف عن سرعة العدو والقوة فيه، وكان بإمكانه أن يعبر عن العاديات بالمسرعات أو الجاريات، ولكن لما كان العدو مختصا بالخيل دون غيرها من الدواب الأخرىٰ؛ ناهيك عما يحمله العدو من التجاوز والاعتداء، وتقدم أن ذكرنا أن القرآن لم يستخدم العدو إلا مع الخيل.

والضبح: صوت نفس الخيل المسرعة التي عدت عدوا شديدا طويلا، ولا يكون إلا في هذه الحالة، ومن هنا كان التعبير به موحيا كاشفا عن دلالات أخرىٰ للعدو، فهو سريع (لا ضعف فيه ولا فتور) وهو شديد (فيه العزيمة والقوة) وهو مستمر ممتد لأزمنة طويلة ومسافات شاسعة، واختيار هذه الصفة بالذات كاشف عن المعاني السابقة، لا يتأتىٰ إدراكه بأي وصف آخر قد يبدو مرادفا.

والموريات قدحا: دقيقه كذلك، إذ لم يقل والمخرجات الشرر، إذ الإيراء هو استخراج النار بالقدح، والقدح فيه قوة وإصرار وجلد ومصابرة وكل هذا في تلك الخيل المغيرة، ناهيك عما ترسمه تلك الصورة من معان مخيفة.

وقس على هذا بقية كلمات السورة.

و"أَثَرْنَ" دقيقة وموحية؛ فالإثارة هي تحريك الغبار وتهييجه، ولا يتحقق هذا المعنىٰ إلا بهذه اللفظة؛ إذ الإثارة فيها من الثوران والثورة، وهي التحرك في كل اتجاه وبقوة.

وكذا الحال مع كلمة "كنود" وهي الأرض التي لا تجود بشيء وتبخل بما عليها القيام به، ومعناه دقيق لا يؤديه غيرها من المفردات؛ ولذا تهاون كثير من المفسرين وأفصح عن المراد بالكلمة بمعان في غير محلها (حجود، كفور).

وكذا قوله تعالىٰ:" لَشَهِيدٌ" و "شَدِيدٌ" و " بُعْثِرَ" و "حُصِّلَ" و " خَبِيرٌ" كلها تحمل دلالات عميقة مرافقة.

وَمِنْ بَدِيعِ النَّظْمِ وَإِعْجَازِهِ إِيثَارُ كَلِمَاتِ «الْعَادِيَاتِ وَضَبْحًا وَالْمُورِيَاتِ وَقَدْحًا، وَالْمُغِيرَاتِ وَصُبْحًا، وَوَسَطْنَ وَجَمْعًا» دُونَ غَيرهَا لِأَنَّهَا برشقاتها تَتَحَمَّلُ أَنْ يَكُونَ الْمُقْسَمُ بِهِ خَيْلَ الْغَزْوِ ورواحل الْحَج.

كَمَا أَنّ القَسَم بالعَادِيَات يُفيد التَّهْوِيلِ وَالتَّرْوِيعِ لِإِشْعَارِ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّ غَارَةً تَتَرَقَّبُهُمْ وَهِيَ غَزْوَةُ بَدْرٍ، مَعَ تَسْكِينِ نَفْسِ النَّبِيءِ -ﷺ- مِنَ التَّرَدُّدِ فِي مَصِيرِ السَّرِيَّةِ الَّتِي بَعَثَ بِهَا مَعَ الْمُنْذِرِ بْنِ عَمْرٍو [1]

وتشبيه الحرب بالنار المشتعلة علىٰ طريق الاستعارة فيه دلالة علىٰ قوة الخيل في عدوها، ويجمع كل ذلك كلمة (قَدْحًا) مما يدل علىٰ قوة الإيجاز وبلاغته، ويتواءم مع كنود الإنسان، وشدة جحوده لنعم الله إلا من رحم.

وفي هذا قمة تحذير المسلمين من صفات المشركين والمنافقين، والدليل علىٰ ذلك تميز كلمات السورة كما سبق بيانه.

(١) - التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٠/ ٥٠١

-تسلسل الأحداث وتتابعها:

فعندما بدأت المهمة التي جهز لها الفرسان والخيل، وزودت بخارطة طريق للوصول للهدف، تبدأ القصة بالعدو الشديد الطويل الذي امتد لساعات، ربما قبل دخول الليل، فلما دخل الليل تنكبت الطريق حتىٰ لا ينكشف أمرها، فعدلت عن الطريق السهل إلىٰ طريق صخري وعر، فكانت الخيل تضربه بحوافرها فيخرج الشرر مما يدل علىٰ أنهم اختاروا ليلة ظلماء لا بدر فيها، وهذا بلا شك أخفىٰ لأمر الإغارة.

ثم لم يلبثوا أن صبحوا القوم بكرة بعد أن داروا عليهم أكثر من دورة ليهيجوا النقع ويزيدوا بذلك من العتمة مما ييسر عليهم توسط الجمع وإعمال السيوف فيهم ومن ثم- مهما كان عددهم وعدتهم- فهم بلا شك المسيطرون.

ويلحظ أن المهمة:

خُطط لها بإحكام شديد: (بملاحظة زمن الإغارة، مكان الإغارة، كيفية الإغارة).

عدت الخيل عدوا طويلا استمرت لساعات حتىٰ نشأ عن هذا العدو صوت الضبح؛ وهو تعالي صوت الشهيق والزفير للخيل.

هذا العدو استمر إلىٰ دخول الليل الحالك السواد (ليلة اختفىٰ فيها البدر)؛ مما أسهم في إظهار القدح وتطاير الشرر من تحت أرجل الخيل.

الوصول عند الفجر حيث القوم ما زالوا نائمين.

إثارة الغبار في أرض المعركة قبل الشروع في قتل القوم للسيطرة عليهم.

توسط الجمع ومباشرة قتالهم.

وسلك الحدث عدة مسالك متنامية:

١- صوت العدو وركض الأرض وسرعة إيقاع الخيل.

٢- أضف إليه صوت الشهيق والزفير الخارج من أجواف الخيل.

٣- أضف إليه صوت اصطكاك حوافر الخيل بالأرض الصلبة واصطكاك الحجارة المتطايرة.

٤- أضف إليه مشهد إيراء القدح من تحت أرجل الخيل في الظلام الدامس مما يزيد الصورة رعبا.

٥- مشهد إثارة الغبار في أرض المعركة قبل مباشرة القتال وما يوحي به هذا الموقف من سيطرة مطلقة علىٰ المغار عليهم وفي الوقت نفسه إخفاء أمر المغيرين.

وفي كل ما تقدم من صور نرىٰ تسلسلا دقيقا وإحكاما عجيبا، فالمشهد يكبر شيئا فشيئا وتتسارع أحداثه في صورة تسلب العقول وتنخلع لها القلوب وتتوقف عندها الأنفاس.

ثم انظر إلىٰ جمال الربط بين الآيات ما لصورة الأولىٰ وظفت بعناية فائقة في إقرار الصورة الثانية (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) فهذه الخيل غامرت من أجل سيدها وبذلت كل ما تستطيع في سبيل الإذعان لأمره، بينما الإنسان لم يُجبل علىٰ حب خالقه ورازقه بل جُبل علىٰ حب ذاته ومصالحه الخاصة.

وأخيرا، الوصول إلىٰ النتيجة النهائية وهي: أيها الإنسان مهما تكن أحلامك وتطلعاتك وما تضمره في نفسك فإن الله كاشفه في يوم القيامة وستحاسب عليه إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

-أدلة صدقها:

مما يميز التعبير القرآني أنه يحمل في طياته أدلة صدقه المقوية، حيث كشفت هذه الآيات – بما لا يدع مجالا للشك- أدلة صدقها، ولنا أن نقول:

١- تبين لنا التخطيط الجيد لهذه المهمة (الإغارة) ولولاه لكانت فاشلة.

٢- أن صوت الضبح ما كان لو لم تجر الخيل جريا طويلا.

٣- أن الشرر لم يكن ليرىٰ لو كانت الخيل تجري في مضمارها المعتاد، ولكونها بيَّتت الإغارة تنكبت الطريق.

٤- أنها وصلت في الوقت المناسب.

٥- أنها قامت بإثارة الغبار في أرض القتال لتسهيل المباغتة وإخفاء أمرها.

٦- الربط المحكم بين الآيات والوصول إلىٰ الحقيقة القاطعة.

-حسن التخلص:

ما يميز السور المكية دون غيرها من السور هو ظهور حسن التخلص فيها من فكرة إلىٰ فكرة ومن سياق إلىٰ سياق، وكل آيات القرآن الكريم علىٰ ذلك ولكن السور المكية أظهر من غيرها.

ويتراءى لي حسن التخلص في سورة العاديات في المواطن الآتية:

أولا: موطن ذكر صفات الخيل، ويبدو لنا من خلال الثلاث آيات الأولىٰ (وَالْعَادِيَاتِ.... صُبْحًا)، إذ أنه عطف الجمل الفعلية (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا-فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) والذي سوغ الانتقال مع وجود العطف بالفاء في كلا المقطعين، هو اختلاف المحدد فيهما، فالأولىٰ صفات للخيل وهي اسم، بينما المقطع الثاني: أحداث تقوم بها الخيل وهي فعل، وإن كان يجوز عطف الفعل علىٰ الاسم إلا أن الغاية تباينت في كليهما.

ثانيا: توظيف المقطع الأول للثاني، فالمقطع الثاني ناشئ عن الأول، إذ في الأول إصرار الخيل علىٰ الوفاء لربها وصاحبها الذي يقدم لها الطعام والشراب والتدريب، فهي تبذل من أجله الغالي والنفيس، وتخوض من أجله المعارك، وتقتحم الجموع وفاء له؛ بينما في المقطع الثاني إنكار لنعمة الرب وتهميش له، إذ لا

يكاد المربوب يدين لربه بشيء، بل يحب ذاته ويسعىٰ لمصلحتها وجلب كل خير لها.

ثالثا: النتيجة المنتهىٰ إليها مع ذلك الجاحد الكنود، وهو أنه سيعلم ما يؤوب إليه حال ذلك البخيل يوم تبعث القبور ويكشف ما في الصدور.

-دلالات الإيقاع الصوتي:

يتمثل الإيقاع الصوتي في المقطع الأول بالانتهاء بحرف الروي (الحاء الممدودة) ضَبْحًا - قَدْحًا- صُبْحًا، وهو حرف حلقي يخرج من أقصىٰ الحلق تماما كالضبح الذي يخرج من آخر الحنجرة، وفي آخره معنىٰ الزفير الممتد (حا) فهو يجعل حركة الكائن وصوته معك أينما توجهت ليلا أو نهارا ، قبل الغروب وعند الشروق، فتظل الخلفية الصوتية وما فيها من معناه وضجيج مسيطرة علىٰ المشهد السريع، مهيمن علىٰ الموقف ابتداء وانتهاء، وكأن صوت الخيل في شهيقها وزفيرها ماثل في هذه القافية.

وارْبِط بين الفاصلة القرآنية وبين عملية إدخال الصوت وإخراجه تجد المواءمة التامة بينهما (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا)...(أح...أح) فالكلمة الأولىٰ تحكي الشهيق (الْعَادِيَاتِ) والكلمة الثانية تحكي الزفير (أح) وهكذا تجانس في الإيقاع لا مثيل له.

أما في الجزء الثاني من المقطع الأول فالخيل مازالت في إصرارها علىٰ هدفها (الإغارة) غير أنها وصلت البغية (مكان الإغارة وقتها) وطبيعي أن يعدل عن أقصىٰ الحلق إلىٰ أدناه (العين) مع المحافظة علىٰ الوزن نفسه (فَأَثَرْنَ) (فَوَسَطْنَ) بتسكين الراء وتسكين الطاء ويقابلها من الجزء المتقدم (عَادِيَاتِ – مُورِيَاتِ - مُغِيرَاتِ) الألف الممتدة الثانية، فكأن الصوت قد خف والمعاناة قد اقتربت نهايتها، فالإيقاع السريع بدأ يخف لكون السكون قطع ذلك الامتداد وأسهم في تجلية المعنىٰ.

أما في المقطع الثاني الذي قصد به الربط بين المقطعين فالحال تغير ولم نعد بحاجة إلىٰ الإيقاع السريع فجاءت الجملة طويلة إلىٰ حد ما. ومحافظة علىٰ النسق العام؛ إذ نشم منها أنفاس الخيل ولكن في حالة عدم الهياج (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) وجاء حرف الروي المسكن (الدال) وفيه بقيت المعاناة وخفت وتيرتها.

وأخيرا، بدأت ألتمس أثر الراحة التي بدأت تدب إلىٰ الخيل، إذ قد ختمت السورة بالمقطع الأخير، وفيه الوصول إلىٰ الإقرار التام (إن الله عالم بخفيات هذه النفس) لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وفيها نجد الحركة السريعة والإيقاع الصوتي المشحون بالمعاناة يختفي تماما، وكأن الإيقاع الصوتي بدأ مجاريا للحركة بوضوح، وفي ذلك مظهر من مظاهر الإعجاز البياني ينبغي التنبه له والالتفات إليه.

الخاتمة:

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، ثم أما بعد، بعد هذه الرحلة الماتعة في أرجاء سورة العاديات، أوجز القول فأقول: تناول البحث سورة العاديات فعرض لها من زاوية مكيتها ومدنيتها، وما قاله العلماء في ذلك، وما تحكيه من أسرار متعلقة بهذا الكائن، وعدد آياتها، ثم تناولنا آياتها بالتحليل، فبينت المعنىٰ الإجمالي أولا، وقسمتها بهذا الصدد إلىٰ ثلاثة أقسام: القسم المتعلق بالخيل والذي جاء في وصف الخيل المقسم بها، والقسم الثاني جاء في وصف الإنسان، وربطت بين القسم الأول والثاني ثم تحدثنا عن القسم الثالث وهو النتيجة النهائية، وهي أن الذي علم حاله أولا عالم بما ستؤول إليه حاله عند بعثرت القبور وتحصيل ما في الصدور.

ثم عرضت لسمات بلاغية عامة تميزت بها هذه السورة منها: دقة كلماتها وعما تشكله من إيحاءات، ومنها: تسلسل أحداثها وتناميها، ومنها أدلة صدقها وحسن التخلص والربط بها، وأخيرا عرضت لإيقاعها وأنه وثيق الصلة بمضمونها.

ومن المناسب إيجاز نتائج البحث فيما يلي:

١- دقة كلمات السورة، سواء في نطاق المفردة، أو في نطاق التراكيب.

٢- أن من أساليب العرب شحن المخاطب وتهيئته للخبر الذي سيلقىٰ عليه.

٣- التوظيف الذكي الذي يعتمد علىٰ وعي المخاطب للحدث داخل القصة القرآنية.

٤- إن الله ﷻ أعلم بمن خلق؛ إذ أنه يعلم خفيات النفس الإنسانية وكيف تفكر ومجازيها علىٰ إحسانها وإساءتها.

٥- كشف السياق عن تسلسل الأحداث وتناميها وأدلة صدقها، وعمق تأثير الإقناع فيها، لكونه المنبئ عن الأحداث.

وبذا تمت الرحلة المباركة في ثنايا هذه السورة.

المدينة المنورة بتاريخ ١/ ٥/ ١٤٤٥هـ، الموافق ١٤/ ١١/ ٢٠٢٣م

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.
- تفسير عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بم همام الصنعاني، تحقيق: محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية، ط الأولىٰ ١٤١٩ه بيروت.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠ هـ.
- تفسير الماتريدي – تأملات.
- تفسير مجاهد بن جبر، أبو الحجاج مجاهد بن جبر المخزومي، تحقيق: محمد عبد السلام أبو نبيل، ط الأولىٰ، دار الفكر الإسلامي، مصر.
- جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة ١٤٢٠ه.
- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) للإمام القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، ١٣٨٤ هـ.
- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطي، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٦.
- ديوان الأعشىٰ، تحقيق: محمد حسين، مكتبة الآداب – ط الأولىٰ، القاهرة.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، درا المعارف، ط الثانية، مصر.
- غريب القرآن لابن قتيبة، لابن قتيبة الدينوري تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٣٩٨ هـ.

- غريب القرآن، محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري، تحقيق: سعيد اللمام.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري، دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة – ١٤٠٧ هـ.
- اللباب في علوم الكتاب، لعمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي.
- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنىٰ البصري.
- معاني القرآن وإعرابه للزجاج، لأبي إسحاق إبراهيم بن السري، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨ه.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيىٰ بن زياد الفراء، دار المصرية للتأليف والترجمة، الطبعة الأولىٰ.
- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني.
- النكت في القرآن الكريم، أبو الحسن علي بن فَضَّال المُجَاشِعِي القيرواني.

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــوع	الصفحة
١	مقدمة	٧٢٤
٢	المدخل: بين يدي السورة	٧٢٦
٣	المبحث الأول: في المقطع الأول(تهيئة المتلقي بما سيُخبر به)	٧٣١
٤	المبحث الثاني: في المقطع الثاني(جواب القسم وعلاقته بالمقسم به)	٧٣٧
٥	المبحث الثالث: في المقطع الثالث(التحذير المفاد من الإنكار)	٧٤١
٦	المبحث الرابع: السمات الفنية لسورة العاديات	٧٤٢
٧	الخاتمة	٧٥٠
٨	المصادر والمراجع	٧٥١
٩	فهرس الموضوعات	٧٥٣